المجلس العلمي

المحاضرة الرابعة (04)

التجارة في الجزائر خلال الحقبة العثمانية:

عناصر المحاضرة:

- تمهيد
- مظاهر التجارة الداخلية في الجزائر العثمانية
- العوامل المتحكمة في التجارة خلال العهد العثماني
- مناطق التبادل التجاري وطبيعة المبادلات.
- وسائل التجارة: الهياكل والتنظيمات.
- الميزان التجاري
- خاتمة

تقديم:

تعتبر التجارة من أهم عناصر الدورة الاقتصادية، ومرآة عاكسة لواقع الاقتصادي لأي مجتمع، حيث تتوقف عليها حيوية الأسواق الداخلية والخارجية، ومنشطا لحركة تبادل السلع والمنتجات بين الريف والمدينة.

1- مظاهر التجارة الداخلية في الجزائر العثمانية:

كانت التجارة الداخلية محدودة نظراً لضعف الإنتاج، وضيق الأسواق حيث كانت التجارة نشيطة بين الشمال والجنوب، وضعيفة بين الشرق والغرب، وهذا نتيجة لاختلاف المنتوجات بين الشمال والجنوب وتشابهها بين مدن الشرق والغرب.

كانت الأسواق في مدينة الجزائر مثلا تتمركز في شارعين رئيسين، أحدهما يمتد من باب عزون إلى باب الوادي، واشتمل على سوق الكتان، سوق الزيت ، وسوق الشمع، وسوق الفكاهين.

كما كانت هذه الأسواق تنظم أسبوعياً وموسمياً تباع فيها المنتوجات الزراعية والحيوانية ومنظمة تنظيماً دقيقاً، ومحل مراقبة من قبل المحتسب وأعوانه لمنع الغش، أما عن الأسعار فكانت تحدد من قبل الدولة.

أدت قبائل الرحالة دوراً كبيراً في تنشيط الأسواق السنوية (أولاد سيدي الشيخ، أولاد نايل، النمامشة...) حيث يتم في هذه الأسواق تبادل منتوجات المناطق الجبلية، بمنتوجات المناطق (بوسعادة، وسكان بني عباس، ومجانة..) وقد تتم عن طريق المقايضة (الزيت مقابل الصوف). كانت مدن السهول العليا تشكل الأسواق السنوية الهامة، التي يتلقى فيها سكان الجبال والسهول والصحراء التي أطلق عليها إسم الشحاتة[1] بالإضافة إلى هذه الأسواق السنوية كانت تنتشر الأسواق الأسبوعية مثل سوق السبت، سوق الجمعة، سوق الإثنين.

أما منتوجات الصحراء فقد تمثلت في التمور والماشية والأصواف وريش النعام يتم مبادلتها بمنتوجات التل المتمثلة في الحبوب والزيتون والتين.

[1]- الشحاتة: إسم يعني الطلابة باللغة العامية أو المتسولون، أطلقه العرف المحلي على سكان المناطق التلية الشمالية، وبعض جهات الهضاب والسهول العليا الجنوبية، هذه المناطق كانت تعتمد على تبادل السلع فيما بينها.، ينظر: يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، د م و، الجزائر ،1999، ص333.

يتوزع النشاط التجاري في العهد العثماني على الأقطار الكبرى مثل قسنطينة، الجزائر، تلمسان، إضافة إلى الأسواق الأسبوعية والموسمية ففي المدن كانت تقام الأسواق الأسبوعية في الشوارع، القيسريات وتحاط بها الفنادق والمقاهي والحمامات وأماكن التجمعات، أما الأرياف فأقيمت بها الأسواق ونشطت بحسب وفرة المنتوجات الزراعية والصناعية.

ارتبطت مدينتي قسنطينة وتلمسان بالتجارة مع الدول المجاورة وما يصلها من القوافل التي كانت أكثر من التجارة البحرية (ميناء عنابة يمول قسنطينة، أما تلمسان لا يوجد لها ممول أما وهران فقد كانت محتلة لهذا اعتمدت على القوافل التجارية من الجنوب).

كانت التجارة الداخلية تحت السلطة العثمانية التي تعطي امتيازات لليهود[1] فكانوا هم من لهم الصلاحية في تزويد الأهالي، بما يحتاجون إليه، فكان اليهودي هو من له القدرة في إمداد العيش للسكان المحليين.

شهدت التجارة الداخلية التراجع والضعف ويعود ذلك إلى العديد من الأسباب التى تتمثل في: قلة الأسواق، وانخفاض الدخل الفردي، ندرة الموصلات، وفساد الجهاز الإداري.

2- العوامل المتحكمة في التجارة خلال العهد العثماني:

تظافرت عدة عوامل في ازدهار هذا القطاع أو ركوده مثل العوامل السياسية والطبيعية شأن التضاريس ووفرة المياه، والعوامل الضريبية والأمنية، إضافة إلى النظام المالي وقواعد التجارة المتمثلة في نظام المقايضة والعملة والاحتكار اليهودي التجاري، ونظام الجمركة والديوان، وحتى عوامل الفساد.

يمكن حسر هذه العوامل التي أثرت في التجارة الجزائرية في العهد العثماني في:

1- الموقع الجغرافي للجزائر حيث أنها كانت محط الأطماع إضافة إلى أنها نقطة عبور والتقاء أفقيا وعموديا.

2- تنوع الموارد المنتجة في الجزائر سواء زراعيا أو مواد أولية مما ساعد في تنشيط الأسواق. أي تنوع المحاصيل الزراعية واختلاف نمط الحياة من منطقة لأخرى.

3- تأثيرات بعض عناصر المجتمع كاليهود والأندلسيين[2] بوجود تقاليد تجارية عريقة مثل العنصر الأندلسي الذي شجع التجارة

4- أهمية المسالك التجارية الرئيسية والثانوية البحرية، التلية، الصحراوية (القوافل).

5- طبيعة البنية الجغرافية ونوعية المناخ أدى إلى تنشيط المبادلات وخلق تكامل بين المناطق.

6- نظام الجمركة والذي ارتبط باستراتيجية السلطة بحيث كان موجه للجباية ومنافيا لتطور المبادلات مما أثر على الواردات والصادرات، وحتى البايلكات لم تستطع السيطرة على المبادلات.

7- تفشي آفات الريبة والرشوة والتهرب الجبائي والتزوير خاصة في الأسواق الداخلية من بين العوامل كذلك احتكار الدولة للتجارة وبعض المواد خاصة: القمح البليوني والخشب هذا ما خلق أزمة إقتصادية بظهور الوساطة الغير منظمة.

---

[1] - كمال بن صحراوي، الدبلوماسي اليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف دحو فغرو، معسكر: المركز الجامعي مصطفى اسطنبولي، 2007 -2008 ، ص 41.

[2]- حنفي هلايلي، العلاقات الجزائرية الأوربية ونهاية الايالة 1815 -1830- م دار الهدى، الجزائر 2007، ص 38.

8- تحول طرق التجارة العالمية من أجل القضاء على الوساطة العثمانية، بعد الكشوفات الجغرافية واستقرار الأوروبيين بسواحل رأس الرجاء الصالح، سان لويس، سبتة، طنجة، المرسى الكبير، الرأس الأخضر، وتأسيسهم للشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية سنة 1600 حيث زالت الوساطة التجارية (Transit).

وفي المقابل هناك جملة من العوامل التي أضرت بالنشاط التجاري:

- الامتيازات التجارية الأجنبية التي تعود إلى عدة اتفاقيات ثنائية بين الباب العالي والدول الأوربية.
- استحواذ اليهود التجاري و توجيهه لخدمة الدول الأوربية.
- عدم إتباع نظام جمركي يخدم التجارة الجزائرية.
- احتكار الدول الأوربية لتجارة المواد الأولية.
- صعوبة المواصلات وهذا بعد استقرار الأوربيين بالسواحل الإفريقية وتوغلهم في إقليم السودان[1]

3-مناطق التبادل التجاري وطبيعة المبادلات:

كان النشاط التجاري مزدهرا خصوصا في السنوات الأولى حتى يقول سبنسر:" أن التجار يمثلون الطبقة الخامسة من سكان الجزائر، ومعظمهم كان في الأرض من الانكشارية أو البحارة أو الأندلسيين وتتمثل تجارهم عموما في الحبوب والأبقار والصوف والجمال والزيت والعسل والعنب والتمر والحرير والجلد والشمع .. [2]".

كانت سلع الجزائر تصدر في بعض الأحيان إلى الخارج خاصة إلى ايطاليا وأوروبا وبعض المدن المغربية. ولعل أهم ما كانت تصدره الجزائر الحبوب والتمور والزيتون والقطن والتوابل والزيوت والعسل والبقول وبعض المحاصيل النقدية، إضافة إلى المواد الأولية في شكلها العام وكل ما يتعلق بصناعة الجلود (جلود الحيوانات) والمرجان وحتى الأقمشة الصوفية والحريرية ومواد سودانية كريش النعام وبعض المواد المصنوعة كماء الورد والمناديل الحريرية والزرابي إضافة إلى الماشية والخيول [3]حتى أن بعضها كان يباع في مزاد علني [4]...

في المقابل ابتاعت في هذه الفترة التبغ، الذهب الخام، العبيد، ريش النعام، العاج، الحرير، العطور، البنادق، مستلزمات السفن، إضافة إلى الأرز والفواكه المجففة، والتوابل كما نجد أيضاً الصفائح الحديدية والمعادن، ودود الحرير، والورق، والصابون، والمنتوجات المطرزة، والقطن[5]...

من أهم مناطق التبادل التجاري هي أوربا متمثلة في الموانئ الجنوبية ليفورن، مارسيليا، فلورانس، جنوة، مالقا، البندقية إضافة إلى الدول المجاورة كالمغرب الأقصى، تونس، السودان الغربي، حوض النيجر، إضافة إلى بلاد المشرق متمثل في الحجاز، مصر، الأناضول.

يمكن الاقتصار على ثلاثة مراكز رئيسية في الجزائر متمثلة في الأقطار الثلاثة: الجزائر، قسنطينة، تلمسان إضافة إلى المناطق الثانوية ومثلت محطات تجارية وأسواق تبادل مهمة وتمثلت في مدن ساحلية(بجاية، عنابة، وهران) وأخرى داخلية (مازونة، المدية، ميلة) وحتى الواحات (تقرت، ورقلة، الأغواط، بسكرة، واد سوف، واد ريغ، اقليم توات، الساورة) .

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني والبوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص 68

[2] - وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ش.و.ن.ت: الجزائر، 1980، ص 118

[3]- جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500-1830)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د ت، ص249.

[4] - وليام شالر، مصدر سابق، ص102.

[5]- علي عبد القادرحليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها ما قبل 1830، ط1، دار الفكر الإسلامي، الجزائر ،1972، ص 108.

استأثرت مدينة الجزائر بالتجارة مع الموانئ الأوربية في حين ارتبطت قسنطينة وتلمسان مع تونس والمغرب مشكلة طرق تجارية رئيسية مع قفصة وغدامس (ليبيا) ومع فاس وسجلماسة.

4- وسائل التجارة: الهياكل والتنظيمات.

أ- الموانئ وطرق المواصلات البرية:

- **الموانئ:** تعتبر الموانئ حلقة وصل بين أوربا والايالة لذلك كان النقل البحري وشفوق على النقل البري ومن هذا الأساس استطاعت الايالة ان تبني قوتها البحرية، ومن أهم الموانئ:

- **ميناء وهران:** ويمتد هذا الميناء على ناحية الغرب، ساهم الاسبان بعد احتلاله 1509 في توسيع وتدعيم رصيفه القاري.[1]
- **ميناء أرزيو:** يقع شرق وهران، وكان ميناء الرئيس لباي معسكر(بايلك الغرب) وقد عمل باي وهران على إقامة عدد من المخازن بميناء أرزيو[2]
- **المرسى الكبير:** يقع على بضعة أميال غربي خليج وهران، محصن طبيعيا حيث أنه محميا من الرياح الغربية، وقد كان قبل استرجاع وهران هو ميناء الرسمي في بايلك الغرب.[3]
- **شرشال:** ميناء صغير محمي بعدة أرصفة ولكن مدخله ضيقا وصعبا لذلك لم تتمكن السلطة من توسيعه.
- **ميناءالجزائر:** من أهم الموانئ في الايالة تكون من عدة جزر كما يمكن إرساء السفن في جميع انحائه.
- **ميناء جيجل:** يقع على بعد 165 كلم من قسنطينة هو خليج كبير ولديه إمكانية إرساء كل أنواع السفن.

ميناء ستورة: وهو على مقربة من سكيكدة وكانت تابعة لميناء عنابة .

تعتبر هذه الموانئ شريان هام لتسويق المنتوجات المحلية لكنها بقيت في الوسط والغرب مستغلة من البايلك أما موانئ بايلك الشرق (عنابة، القل، القالة) فكانت مستغلة من قبل المؤسسات الفرنسية في شكل امتيازات.

- طرق المواصلات البرية: وهي نوعان داخلية وخارجية

1- الداخلية : وكانت مختلفة عن مثيلاتها في أوروبا، وتنقسم إلى جهوية وسلطانية، وهي الطرق التجارية الكبرى ويوجد منها بالجزائر التي تربط البلاد بكل من تونس ووهران وتلمسان ووجدة : ومنها نذكر:

-الطريق الذي يربط مدينة الجزائر بالداخل المتمثلة في الطريق الشرقي الذي يربط باب عزون ثم يمر بقنطرة الحراش ثم ينحني إلى الجنوب ليمر بالبويرة ثم سهل مجانة ليصل بمدينة قسنطينة .

-الطريق العرضاني الشمالي يربط تونس بفاس مرورا بمدن الكاف وقسنطينة وسطيف وحمزة والجزائر ووهران وتلمسان ووجدة.

-الطريق العرضاني الجنوبي، يربط وادي سوف بالعاصمة ويمر بمدينتي بسكرة وبوسعادة.

-الطريق القطري الشرقي، يربط وادي ميزاب بتونس، مرورا بمدن الاغواط، وبوسعادة وقسنطينة والكاف[4].

- طريق وادي سوف غدامس، يقطع في عشرة أيام ولكنه محفر بالمخاطر بسبب ما فيه من كثبان رملية.

---

[1] - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، ص 77.
[2] - الزهار احمد الشريف، المصدر السابق، ص 47..
[3] - محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 78
[4] - المرجع نفسه، ص 77.

- **وسائل النقل** فهي تختلف من مكان إلى آخر ففي التل سيتحمل التجار الجمال والبغال للسلع، والخيل للأشخاص، وأما في الصحراء يستعملون الجمال والحمير المصرية لهما معا.
- **التجارة القوافلية:** وهناك طريقتان مشهورتان للقيام بعملية النقل أولهما هي القافلة التي قد تضم مجموعات متعددة من التجار الذين لا تربط بينهم سوى مصلحة الطريق وثانيها هي النجع أو القبيلة السيارة التي تتنقل بكاملها ولذلك هي أيضا من الأول ولكنها أضمن بالنسبة للتجار.
- **المحلات التجارية:** عدت كتب الرحلات عددها ومهامها (الحسن الوزان)، وبالموازاة كانت المحلات التجارية بمدينة مليانة مجموعة في شارع وافد على غرار محلات مدينة المدينة، تنتشر حولها أشجار الكروم بأحجام مختلفة على طوال الشارع وأن هذه المحلات لم تكن بعيدة على باب وهران في الغرب وكان أحد الشوارع يسمى بشارع التجار، وكان اغلبها محبسا) 20 حانوتا (تابعة الأوقاف الحرمين الشريفين).

طرق المواصلات الخارجية: كانت للطرق التجارية ارتباط بأهم الأسواق والفنادق التي كانت متواجدة في كل حاضرة من حواضر الايالة وذلك من أجل تبادل البضائع وعقد الصفقات التجارية.

- **الأسواق:** يتوزع النشاط التجاري بالجزائر في العهد العثماني على أسواق كثيرة منها الأسواق الأسبوعية والموسمية لتبادل المنتوجات.
- **الفنادق:** وهي منشآت متخصصة في التجارة الكبرى وغالبا ما تكون متخصصة في بيع مادة بعينها ومن أهم هذه الفنادق فندق ابن التركية، فندق لبن رزقي وغيرهما[1]. إضافة إلى الفنادق التي كانت تأوي القوافل التجارية القادمة من الصحراء وكانت على درجة كبيرة من التنظيم وحسن البناء مقارنة بفنادق مدينة الجزائر[2].

5- الميزان التجاري: بعد تناقص الانتاج وانقطاع غنائم البحر أصبح الميزان التجاري الجزائري يسجل عجزا مزمنا في أواسط القرن الثامن عشر بل أضحى مع مطلع القرن التاسع عشر يشكل احدى مظاهر انهيار الاقتصاد الجزائري.

وأهم ما تحكم في الميزان التجاري وهو وضعية الواردات والصادرات فكانت صادرات الجزائر لا تتجاوز 273000 دولار اسباني بينما ارتفعت نسبة الواردات الى أكثر من 000 1200 دولار سنة 1822 بحيث بلغ العجز التجاري ما قدره حوالي 000 927 دولار اسباني حسب ويليام شالير[3].

ويعود هذا الاختلال الى ارتفاع قيمة الصادرات وارتفاع في أثمان المواد المصنعة والمستوردة في أغلبها من البلدان الأوربية و الى تحكم التجار اليهود في الوكالات التجارية الأوربية في الأسعار والأسواق ومصادرة المواد الجزائرية وإرهاق الحرفيين و المزارعين بالضرائب و نظام الاحتكار[4].

خلاصة: إن الاقتصاد الجزائري عرف ازدهارا ملحوظا في القرنين 16و17م وتقهقرا ملموسا ابتداء من أواسط القرن 18م، وانتهى الى حالة من الضعف والجمود أدت الى انهيار النظام السياسي للدولة الجزائرية في أول اصطدام حقيقي لها مع قوة أوروبية.

---

[1] - براهمي نصر الدين نصوص على تابليت، تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني، منشورات ثالة، الجزائر، 2010م، ص 177.
[2] - ودان بوغفالة، الاقتصادي والاجتماعي لمدينتي المدية وملیانة في العهد العثماني، مكتبة الرشاد للطباعة، الجزائر،2009، ص 143.
[3] - وليام شالر، مصدر سابق، ص ص102، 103.
[4] - حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر العثماني، ص 161.